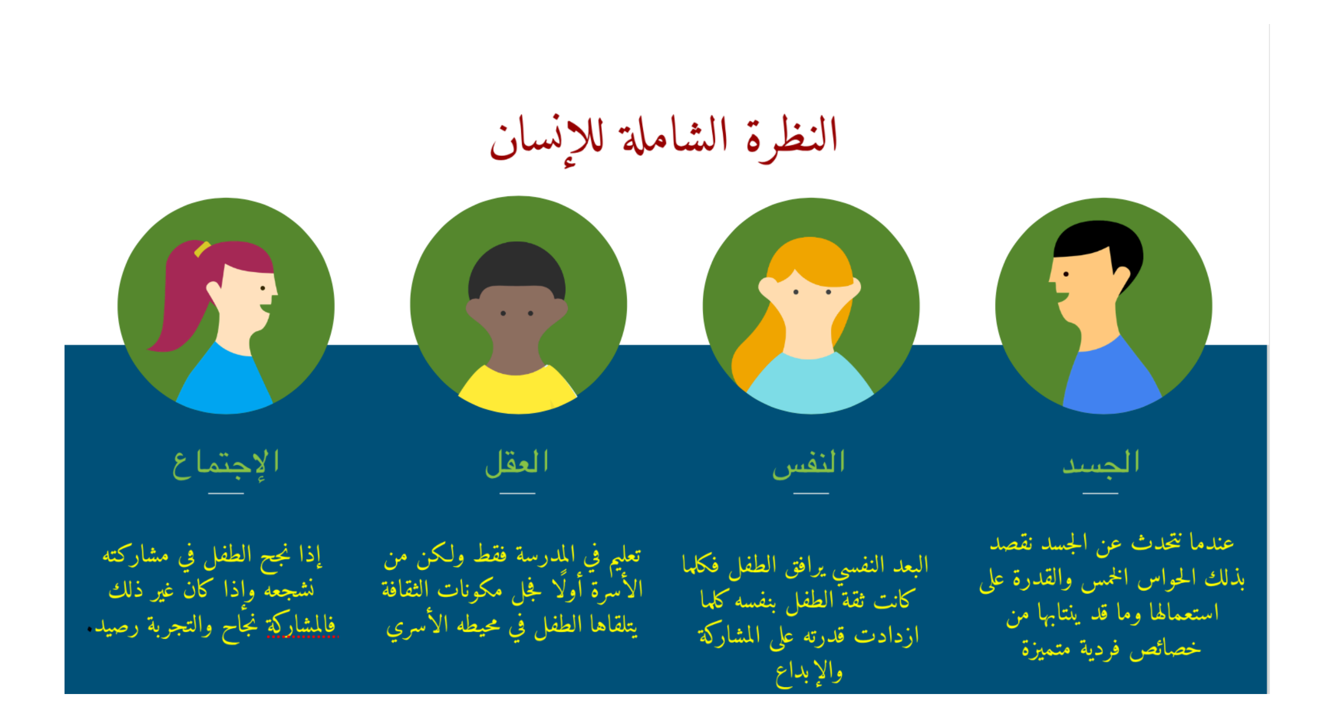
النظرة الشاملة للإنسان



أ. عبد الإله الغياثي أبو طارق

المحتوى

التواضع مفتاح الفهم

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]

أصل هذا الكتيب توجيه حاورت به ابنتي في لحظة كانت في أمس الحاجة لسماع هذا الكلام الذي ستقرأ، والذي أرجو أن يروقك وتستعمله في علاقاتك الإجتماعية والمهنية وفي المواقف التربوية.

لا يمكن للمتكبر أن يفهم الآخر لأن الفهم يقتضي فتح الذهن والتركيز وعدم السماح للمشاعر أن تطغى على الإدراك العقلي. ضابط التواضع الإنتباه والصبر وحسن الإستماع والتدبر. اعلم أن المخاطب محاور وأن الحوار سماع وفهم وتدبرثم جواب، حيث يصبح المرسل مستمعا والمستمع مرسلا وهكذا يتبادلان الأدوار. أما حينما لا يسمع أحدٌ الآخر رغم نظره إليه فإنه يعطي الدليل على قصور في الحوار وإن كانت الغفلة متعمدة فذلك تعبير عن سوء الخلق ، فكيف يعقل أن أحد المتحاورين يخاطب الثاني فإذا بهذا الأخير لا يستطيع تكرار ما قال الأول ناهيك أن يحاوره. إن حال هذين مثل حال الأطفال في الروض حيث يتحدثون جميعا في نفس الوقت دون أن يستمع أحد لأحد.

ولقد كرَّمنا بني آدم

ومن علامات الإكرام القدرة على ضبط النفس وتجاوب الجسد مع الحالة التي يوجد فيها الفرد. إن الجسد يفضح صاحبه أو يؤكد معيته .

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف :84]

إذا نظرت إلى العين فسوف ترى الحالة النفسية لصاحبها



إن من المصطلحات التي يجدر بالمربي أن يتعلم مصطلح الإستماع النشط ومن تسمياته الإنصات أو ما يسميه البعض الإستماع الحركي أو الواعي.

الاستماع النشط

إن الإستماع هو بداية الفهم أو التفاهم. نلاحظ في كثير من الأحيان أن سوء الفهم يؤدي إلى التنافر والتشاجر وقد يؤدي إلى الإجرام. إن من ضوابط الإستماع النشط أن يستطيع المتحاور تكرار ما يقول الآخر والتأكيد المستمر بكلمات قصار أو تكرار بعض ما قال المحاور على شكل استفهام، أو القيام بحركات تثبت للآخر أن كلماته لا تذهب جفاء وأنه على طريق التفاهم.

يتعلم المسلمون منذ الصغر حديث جِبْرِيل وهو حوار بين جِبْرِيل عليه السلام ورسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم. فِي مقدمة القصة تعريفا بالحالة التي يحظر بها جِبْرِيل عليه السلام وطريقة جلوسه. ثم أسلوب وضع المتعلم للأسئلة.

النظافة الجسدية دليل على أن المتحاورين يجب أن يهتموا بجسدهم و بلباسهم بحيث لا يكون الواحد منهم منفرا للآخر، بل يكون مثيرا للإعجاب والتدبر فجبريل عندما دخل كان شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر وهذا علامة على الإستعداد الجسدي للحوار والتعلم.

وعندما جلس جِبْرِيل عليه السلام اقترب من المعلم صلى الله عليه وسلم ووضع ركبتيه إلى ركبتيه و كفيه على فخذيه . وفِي هذا كناية على طريقة جلوس المتحاورين وكأن الجسدين يأخذان مكان المتحاورين. كانت هذه طريقة الجلوس في ذلك الزمان والمكان.

وبطبيعة الحال تختلف طريقة الجلوس من بلد إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى، والذي يُهمنا في هذا المقام هو إعطاء الجسد حقه أثناء الحوار بحيث لا يكون الواحد منفرا للآخر ولا محتقرا له

ناظرا إياه نظرة علوية متكبرة ، فالمتكبر لا يحسن الإستماع ولا الفهم ويكون كبره عاملا أساسيا في سوء الفهم٠

اتركي الفرصة كاملة لمحاورك كي يعبر عن رؤيته للأمور وأشعريه بأنك كلك آذان صاغية قلبا وقالبا. وبطبيعة الحال يجب أن يكون ذلك بشكل عفوي وهذا لا يتأكد إلا بالصدق في اللقاء وإعمال الجهد لتتبع ما يقال فالمتحاورون يختلفون في طريقة حكيهم وتناولهم للتنازلات فعلى الذكي أن يحترم ذلك الإختلاف الذي بينه وبين محاوره ويتقبله بصدر رحب. فالناس يخلطون مشاعرهم مع ما يحكون وعليكِ أنت أن تجدين لُب الحكاية فتتابعيها مع التأكيد على أنك متفهمة للمشاعر محترمة لها مما يجعلك مهدئة الروع من جانب المحاور و ضابطة النفس من جهتك. إنك تستطيعين مساعدة الآخرين على إيجاد حلول للإختلافات بمجرد حسن الإستماع٠

ومن الأمور الضرورية لكي يكون الإستماع نشطا وضع الأسئلة المناسبة في الوقت المناسب، والمناسبة تقدر بحسب الرواية حيث تمسكين بالفراغ أثناء الحديث، يعني حينما يقف ليتنفس ويكون كلامه تاما غير مرتبط نحويا ولا معنى بما بعده فتلقين السؤال المنبه، وبهذا تستطيعين أن توجهي المحاور إلى الحلول المناسبة لقضيته. أجل قضيته، لأنه لا يجوز لك بحال من الأحوال أن تخلطين مشاعرك بمشاعره أو أفكارك بأفكاره مما يجعلك غير محايدة وَمِمَّا قد يزيد الأمر تعقيدا كأن تقولين: معك الحق أو صدقت ولكن قولي : ما رأيك الآن؟، كيف ستتصرف من الآن فصاعدا؟، هل عندك حل لهذه القضية؟ وغير ذلك من الأسئلة التي لا تَحرم المحاور من البحث الشخصي ولكن تجعله يقظا ملتمسا للحلول ومتحمسا للمسؤولية، فلا تقترحي حلولا أبدا ولكن ساعدي الآخر على إيجادها بنفسه٠ اقتراحاتك قد تكون متأثرة بتجربتك الشخصية التي استعملت فيها قدراتك ومهاراتك الشخصية وهذا لا يمكن أن ينفع الآخر إلا إذا كانت له نفس القدرات والمهارات وهذا ما لا يتأتى دائما لأن كلا ميسر لما تربى عليه ٠

طريقة الجلوس

كانت ابنتي في لقاء تربوي جامع وكان من بين الحاضرين فتاة حبيسة كرسي متحرك فسألتني فقالت يا أبي كيف ادخل في حوار مع إنسانة معاقة؟

فأجبتها: يجب أن تكون نظرتك إلى الإنسان بشكل عام نظرة شاملة متكاملة, وهذا يجعلك قادرة على فتح الحوار مع أي إنسان كان . فلكل إنسان جسد وعقل ونفس و علاقات اجتماعية وقدرات ومهارات وإرادة و حاجات ودوافع وغرائز. وكما أن لكل إنسان قدرات ومواهب، له كذلك هفوات وحواجز قد تضعفه. وأما نظرتك فيجب أن تتحول من الإشفاق إلى التقدير.

بين القدرات والحواجز

يجب أن نركز على القدرات لتطويرها وكلما طورنا القدرات تقلص مجال الحواجز وخاصة النفسية. عند اللقاء مع الآخر، ركزي على ما يستطيع هذا الإنسان، على ما يحسن، ما أبدع أو أنتج. أو ما يتطلع إلى إنجازه. إن توجيه التركيز نحو القدرات المتاحة والمتميزة لدى الفرد اعتراف منك بها واعتراف منك بالشخص نفسه كإنسان يمكن أن يعتمد عليه في المجالات التي تميز فيها بشكل كامل وفي غيرها بشكل أقل تألقًا. مثالنا في ذلك مثال من يريد أن ينشأ مشروعا تجاريا، فكثيرًا ما يكون التركيز على المال ومصدره، في حين أن التركيز في المراحل الأولى يجب أن يرتكز على غير ذلك مثل تميز الفكرة وآفاقها وعلاقاتها بالسوق وغير ذلك مما قد يكون صاحب المشروع متفوقا فيه، ولكن التركيز على جانب التمويل، أي على العقبة التي تضع حاجزا تجعل الفرد سرعان ما يفشل ويغادر الفكرة.

تصوري يا ابنتي أنك مساعدة اجتماعية وشخصية، متخرجة من مركز التكوين المهني وعارفة بالحاجات والقدرات وبعد الطلب حصلت على عمل بصفة مساعدة لهذه الإنسانية حبيسة الكرسي المتحرك،وعرفت أن اسمها سعاد، ما الذي سيميزك عن الآخرين؟ أنا أعلم يا ابنتي أنك ستبدلين كل جهدك لكي تقومي بواجبك على أحسن وجه ولكن اود أن اسمع منك من أين ستبدئين؟ هل ستسألين عن القدرات أم عن الحواجز؟

طبعًا ستختارين التركيز على القدرات وهذا بطبيعة الحال سيجعل لك حظا من التقدير لدى سعاد .

إن الذي يركز على الجوانب الإيجابية التي يتميز بها الآخر يجعله محترِما له قادرا على الحوار معه بكل ثقة ، سعيدًا بالتعرف عليه، ناظرًا إلى الحياة بشكل موضوعي و إيجابي و بنَّاء.

اعلمي أن الحديث عن القدرات يميزكِ ويجعلك في وضع مقبول تستطيعين من خلاله أن تساعدين الفرد على تطويرها وتنميتها و تزكية هذه القدرات ويكون ذلك مبني على الثقة بينكما لأن هذا الشخص يرى فيك ذلك الإنسان الذي يستحق أن يتعرف على أسراره وبذلك تفتحين بابا لم يكن بإمكانك فتحه لولا جسر الثقة التي بُنيت بينكما على أساس نظرتك الإيجابية إلى قدرات هذا الشخص. ومن هنا يبدأ التغيير بالحديث عن الحواجز، حيث يصبح هذا الحديث مبنيا على أساس نظرة تصحيح وتقوية لا نظرة الإستهتار ولا الإحتقارولا العجز.

أخلص من هذا الكلام يا ابنتي إلى أن التركيز على القدرات يفتح الفرص وأن التركيز على الحواجز يعيق عملَك.

الأبعاد الأربعة

هناك أبعاد أربعة يجب التركيز عليها كي لا تتيهي بين الأفكار. استعملي هذه الأبعاد أداة في العمل الاجتماعي والتربوي، سواء اشتغلت مع الكبار أو مع الصغار . اعلمي أن ما يكون في النفس والفكر يظهر على الجسد ويؤثر في اتخاذ القرار. لو قلت الآن وأنا أكتب هذه السطور يجب أن أنام لأن الوقت متأخر وجسدي لا يتحمل السهر أكون بذلك قد اتخذت قرار توقف عن الكتابة من دون أن أستوثق لنفسي هل فكرتي عن التعب وعن جسدي وعن النوم وحاجتي إليه كل ذلك صحيح أم لا .

البعد الجسدي

ونقصد بذلك جسد الشخص الذي نهتم به، فسعاد مثلا لها قدرات جسدية تامة وربما متفوقة وأخرى محدودة بسبب التزامها للكرسي المتحرك .

أما التفوق فعلامته مشاركة سعاد في اللقاء التربوي الجامع، فجسدها إذاً يتحمل المشاركة في مثل هذا اللقاء، وهي تتحرك من مكان لآخر بكل استقلال. والعلامة الثانية مشاركتها الفكرية فهي تستمع للمحاضر وللمداخلات وتشارك في أعمال اللجان. أما العلامة الثالثة فهي قدرتها على تحمل أعباء السفر من أجل الوصول إلى مقر اللقاء إلى جانب قدرتها على التركيز الفكري طيلة مدة اللقاء .

تردَّدَت أثناء الإستراحة كما تردد آخرون لأنكم لم تعرفوا مُفاتحتها في موضوع معين كي لا تبقى منعزلة عن الآخرين. وفي الحقيقة إن النقص فيكم وليس فيها، أنتم الذين ركزتم على الحاجز الجسدي عندما استعملت سعاد كل قدراتها الجسدية وحظرت معكم. فالعيب فيكم وليس فيها .

وعندما نتحدث عن الجسد نقصد كذلك الحواس الخمس والقدرة على استعمالها وما قد ينتابها من خصائص فردية متميزة. فالبصر مثلا يختلف من شخص إلى آخر وذلك من حيث القدرة على تمييز الرموز والأشكال وإعادة تصورها وإنتاجها واستخدامها ،وكذلك تمييز الألوان والقدرة على التكيف مع الأوضاع المختلفة ، وأخيرا القدرة على تمييز الخصائص والعلاقة بينها من جهة وعلاقتها بالخلفية ومحيطها من جهة أخرى.

ويجدر بالمربي والمعلم أن يعرف معنى حدة البصر وزاوية الرؤية وهل عند الطفل حوَل أو عمى الألوان وغير ذلك.

وَمِمَّا ننصح به إجراء فحوص مبكرة لكل الأطفال كي يستطيع المربي أن يعرف أسباب بعض الظواهر التي يتميز بها طفل ما عن الآخرين. وهذا من الواجبات التي يجب أن يضطلع بها المسؤولون عن رياض الأطفال. أما نتيجة هذه الفحوص فيجب أن تُخزَّن في الملف الخاص بكل طفل وتصاحبه في كل المؤسسات لكي يتم التطوير والتصحيح من جهة ولكي يكون الأشخاص الذين يتعاملون مع الطفل على دراية بذلك فيستعملون تلك المعرفة لصالح الطفل، فالمعلم مثلا إذا عرف أن تلميذا معينا لا يحسن التذكر بسبب عدم القدرة على ربط الأجزاء، يركز على تثبيت العلاقة بين الأجزاء ويركز على التكراروا ستعمال الألوان والأشكال المتنوعة آخذا بعين الإعتبار علاقة الحواس بعضها ببعض.

هناك بعض الرياضات التي تنمي الثقة في الجسد أكثر من غيرها وعلى سبيل المثال السباحة وركوب الخيل والمصارعة، وكلما مارس الطفل هذه الرياضات كلما نمت ثقته بجسده وكلما كانت مشاركته في الرياضات الجماعية مثل ألعاب الكرة الجماعية مشاركة فعالة.

ومن ضوابط التفوق الجسدي: السمع السليم والكلام المتوازن حيث لابد للطفل من الإستجابة للنداء وحسن الجواب عند الخطاب. ومن ضوابطه القدرة على المشي بنسب متعارف عليها لكل مستوى من العمر.

البعد الثقافي والديني:

المشاركة مع الأسرة أولا ثم مع الآخرين في حفلات أو عمل ابتكاري أو رحلات لاكتشاف المحيط الجغرافي أو المشاركة في المخيمات التي تدوم بضعة أيام أو أكثر كل هذا من شأنه أن ينمي الثقة بالنفس على خوض التجارب الإجتماعية. إن التعليم أساسي في اكتساب المهارات الثقافية ولكن الثقافة لا تأتي من التعليم في المدرسة فقط ولكن من الأسرة أولًا فجل مكونات الثقافة يتلقاها الطفل في محيطه الأسري وخاصة ما يتعلق بلب الثقافة من عقيدة ودين وقيم اجتماعية .

البعد الإجتماعي:

القدرة على الإجتماع بالآخرين ضرورية لخوض مراحل الحياة، قد يكون الطفل انطوائيا يخشى اللقاء مع الآخرين وهذا يحتاج إلى التدريب للخروج من منطقة الإطمئنان مع نفسه منزويا أو مع أقربائه إلى منطقة أوسع يمارس فيها في الأول مغامرة تجربة اللقاء مع الغرباء، وسرعان ما يتعود على المخالطة ويظهر قدراته الإجتماعية فيتفاعل مع الآخرين.

البعد النفسي

التشجيع:

من الأمور الضرورية لتنمية القدرات الجسدية مرافقة الاولياء عند ممارسة الأنشطة الرياضية والتشجيع المستمر والحديث عن المشاركات والتفوق والمشاركة نفسها، وتقبل الأخطاء والإخفاقات، لأن كل ذلك ينمي الثقة بالنفس ومعرفة القدرات الشخصية، وهذا ضروري من

أجل الإنجاز والإبداع، فالبعد النفسي يرافق الطفل في كل حياته فكلما كانت ثقة الطفل بنفسه كلما ازدادت قدرته على المشاركة والإبداع. كثير من طلبة الجامعات لا ينقصهم الذكاء ولكن تنقصهم الثقة بالقدرات الشخصية ولديهم الخوف من المغامرة، وبطبيعة الحال فإن الإبداع يحتاج إلى عدم الخوف من الخطإ والقدرة على تحمل مراحل إعادة التجربة وتحمل النتائج.

إذا نجح الطفل في مشاركته نشجعه، وإذا كان غير ذلك فالمشاركة نجاح والتجربة رصيد.

يجب أن يلمس الطفل أن الكبار فرحين بمشاركته متابعين لأطوارها متفاعلين مع نتائجها بنفسية إيجابية .

لا تذكري الإخفاقات بل ركزي على الجوانب الأخرى. فلنكن إيجابيين في تعاملنا مع أطفالنا إذا كنا نرغب في تكوين جيل مستقل ، ذا ثقة بالنفس ، قادر على اتخاذ المبادرة.

وضابط كل ذلك أن تنتبهي إلى الأفكار والمشاعر المسيطرة على الشخص وتضعي جملة من الأسئلة لكي تتعرفي على الجوانب الإيجابية التي يجب تنميتها والجوانب السلبية التي يجب مساعدة الشخص على تجاوزها وتغييرها بحيث تصبح إيجابية.

التوبيخ:

من المشاعر السلبية التي تسيطر على الشخص في ضروف معينة المشاعر السلبية التي تدخل عليه فتجعله ذَا نظرة سلبية للمستقبل كأن يصحبه فشل عام بسبب عدم ثقته بقدراته فلا يعتقد بأنه قادر على تجاوز المرحلة أو الحالة التي هو فيها.

ومن أسباب هذه الحالة ما يجد جذوره في مرحلة الطفولة، كتكرار سماع الطفل الكبار وهم يحرمونه من التجارب والأخطاء:

أنت لا تستطيعين هذا!

اخرجي من المطبخ فأنت لا تعرفين طبخ شيء و لن تكوني طباخة!

اترك تلك الآلة فهي خطر عليك!

نتائجك في الرياضيات لا تؤهلك لكي تكون مهندسا في المستقبل!

لعل النظرة السلبية للطفل تكون سببا في تقاعسه عن العمل والتلبس بشخصية العاجز الذي لا يمكن أن ينجح.

هذه النفسية لا يمكن تغييرها إلا بتغيير سلوك الكبار أولا.

بطبيعة الحال قد تأتي الملاحظات السلبية من الأقران وهذا ما يجب الإنتباه إليه وقد تأتي من معلم فاشل لا يلتزم بالمبادئ التربوية وقد تأتي من حاقد أو من عنصري فكم سمعنا الأطفال يرددون ما قال المعلم عن عدم قدرتهم على أن يحققوا ما يحلمون به وأن عليهم أن يكونوا واقعيين ويحُدوا من تطلعاتهم. قد تكون هذه النظرة السلبية سببا في فقدان الثقة بالمهارات الشخصية ولذلك يجب أن يحرص الأولياء على غسيل الدماغ اليومي لكي لا تترسب فيه ثم في النفس مشاعر اليأس والإحباط.

خلاصة:

إن النظرة الشمولية للإنسان هي مفتاح النجاح في العلاقات الإجتماعية.

تأكدي أن جهودكم في تربية أطفالكم تصنع فارقًا كبيرًا في حياتهم. التوجيه والاهتمام الشامل يسهمان في نموهم الجسدي والعقلي والنفسي بشكل إيجابي مما يجعلهم نافعين لأنفسهم ومجتمعهم .

الفهرس